أصل التصوف



الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 25/10/2021 ميلادي - 19/3/1443 هجري

الزيارات: 4772

أصل التصوُّف

قال القرطبي في تفسير سورة طه في قصة عِجل السامري: قال تعالى: ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ [طه: 91]؛ أي: لن نزال مقيمين على عبادة العجل، ﴿ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [طه: 91] فننظر هل يعبده كما عبدناه؟ فتوهَّموا أن موسى يعبد العجل، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفًا، الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين معه: هذا صوت الفتنة؛ فلما رأى هارونَ أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبًا، و﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ [طه: 92]؛ أي: أخطؤوا الطريق وكفروا ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه: 93] (لا) زائدة؛ أي: أن تتبع أمري ووصيتي،وقيل: ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم؟وقيل: معناه: هلا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم؟!وقيل: ما منعك من اللحوق بي لما فُتنوا،﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه: 93]، يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي؛ قاله ابن عباس،وقيل: معناه: هلا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعًا لهم وزجرًا،ومعنى ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه: 93]، قيل: إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: 142]، فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم والإنكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره.

مسألة: وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيًا حكمُه كحكمهم،وقد مضى هذا المعنى في آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال.

وسُئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِمَ - حرس الله مدته - أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيًا عليه، ويحضرون شيئًا يأكلونه،هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين [يرحمكم الله]، وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كفَّ عن الذنوبْ قبل التفرُّقِ والزلَلْ

واعمَلْ لنفسك صالحًا ما دام ينفعُك العمَلْ

أما الشبابُ فقد مضى ومشيبُ رأسِكَ قد نزَلْ

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب: يرحمك الله، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأما الرقص والتواجد فأول مَن أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلًا جسدًا له خوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغَلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى، وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم؛ هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق.

وجاء في كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي: قال مريد لأبي يزيد البسطامي: يا شيخ، أنا معكم منذ ثلاثين سنة وما رأيت شيئًا مما تذكرون؟! فقال له: لو جلست معنا ثلاثمائة سنة ما وصلت إلى شيء،قال: لماذا يا شيخ؟ قال: لأنك محجوب،قال: بأي شيء؟ قال: بحجاب نفسك،قال: وكيف؟ قال: لا تقدر،قال: علِّمْني،قال: لا تقدر،قال: علِّمْني،قال: إن كنت تريد ذلك فاذهب إلى المزين واحلق رأسك ولحيتك بالموسى، ثم خذ مخلاة واملأها جوزًا ولوزًا واجمع حولك الصبيان، واذهب إلى الحضرة وقل: مَن صفعني صفعة أعطيته جوزة أو لوزة،فقال المريد: سبحان الله! أتقول لي هذا؟! قال: قد أشركت بالله؛ لأنك سبحت نفسك ولم تسبح ربك،قال الغزالي: هذا هو طريق الحقيقة، وإن أنكره علماء الرسوم.

وحكى الغزالي أن رجلًا كبير القدر من أهل بسطام كان جالسًا وحوله مريدوه وبينهم شاب انصرف عنهم وبدأ يذكر الله في نفسه، فقال له الشيخ: لماذا أنت مشغول عنا؟ قال: مشغول بذكر الله،قال: ويحك؛ إن نظرة واحدة إلى وجه أبي يزيد البسطامي أفضل من النظر إلى وجه الله سبعين مرة.

وقد رددت على ذلك في قصيدتي المعروفة بالنصيحة، فقلت:

وقد فرَّق الجهَّالُ دِينَ محمَّدٍ إلى شِرْعة تبدو وشرع الحقيقةِ

وقالوا: لقولِ الله ظهرٌ وباطن وباطنُه يبدو لأصحاب وصلةِ

وما علِموا أن الشريعة نَهجُها طريقُ الهدى فيها تمامُ السعادةِ

وما كان قولُ الحق مِثلَ مقالهم تنزَّه عن أغراضِ أهلِ الضلالةِ
